بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الاختلاف من سنن الله الكونية :

الاختلاف لابد منه ، وهو ظاهرة صحية أرادها الخالق ، ففي المخلوقات ذكورة وأنوثة ، إنسانا أو حيوانا أو نباتا ، بل أو جمادًا ، حتى لا ينقطع إعمار الكون .

ولكن ذلك الاختلاف في أصله اختلاف تنوع إلا إذا حوله المخلوق إلى اختلاف تضاد : فليل ونهار ، ونور وظلام ، وحياة وموت ، وكفر وإيمان ، وصحة ومرض . قال سبحانه : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) النجم / 45 .

وقال عز وجل (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) الملك / 1 – 2 وقال سبحانه (وجعل الظلمات والنور)(الأنعام / 1 وقال سبحانه (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) التغابن / 2 وقال سبحانه (ومن كل شيء خلقنا زوجين) الذاريات / 49 .

وعلى مستوى البشر خلقهم الله مختلفي القدرات في الذكاء والحفظ والفهم ، بل في السمع والبصر والتفكير ، والضعف والقوة والنشاط والكسل ، والغنى والفقر ، وكذلك خلقهم على اختلاف في الطبائع والنفسيات .

ولما خلق الله الخلق لغاية واحدة ، هي عبادته وحده ، وعدم الإشراك به شيئا ، وهذه العبادة مضبوطة بضوابط وكيفيات أرادها المعبود ، ولا سبيل للخلق إلى معرفتها إلا إذا بينها الخالق ، وقد بينها عن طريق الرسل الذين اختارهم لتحمل هذه المهمة ، فأوحى إليهم ، وأمرهم بتبليغ الأوامر والنواهي إلى الناس ، وقد أعطاهم علامات حتى يصدقوا من قبل المبعوث إليهم ، فصدق بعضهم برسالات من بعث إليهم ، وكذب آخرون .

وشاء الله أن يكون آخرَ الأنبياء والمرسلين محمدُ بن عبد الله – صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الغمة ، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين . ولما كانت رسالته خاتمة الرسائل ، قال الله تعالى : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيئين) الأحزاب / 40 .

وكان الرسل السابقون يرسلون إلى قومهم خاصة ، وكان محمد صلى الله عليه وسلم – رسولا إلى الناس أجمعين إلى قيام الساعة ، قال الله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) سبأ / 28 ، وقال – سبحانه – : (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) الأعراف / 158 ، لم تكن لتنتهي الرسالة

وتعاليمها بوفاة رسولها ، بل إن الأمة التي آمنت وصدقت بها مأمورة بأن تبلغها إلى الأجيال على مر العصور ، كما أن شريعتها لابد أن تكون صالحة في جميع الأزمنة والأمكنة ، ولما كان ذلك كذلك ، جاءت أحكامها قسمين : ثوابت لا اجتهاد فيها ، وقسم قابل للاجتهاد .

ومدار هذه الأحكام على القرآن والسنة ، غير أن بعض نصوصهما صريحة لا يحتمل التأويل بحال ، وبعضها الآخر قابل للفهم بطرق مختلفة بضوابط معينة ، وقد فهم فقهاء الصحابة ذلك من مصاحبتهم لصاحب الرسالة .

فكانت هذه الثوابت محل إجماع من الصحابة ، فإذا سئل أحدهم عن مسألة من هذا القبيل أفتى فيها من الكتاب والسنة ، وإذا سئل آخر عن نفس المسألة أجاب بنفس جواب صاحبه ، وحتى لو أخطأ أحدهم في الجواب ؛ فإن تذكيره بالنص أو تبيينه له كفيل بإرجاعه إلى الطريق القويم .

والسؤال الذي يطرح هنا : هل اختلف الصحابة في الأحكام بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم ؟

والجواب بالإيجاب ، ولكن اختلافهم كان محدودا لمحدودية المسائل المستجدة ، وكان محكوما بالآداب التي تعلموها من النبي – صلى الله عليه وسلم – نذكر هنا – ولابد – اختلافهم في حياة الرسول وذلك في المسألة المشهورة عندما طلب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم – من صحابته أن يذهبوا إلى بني قريظة بقوله : " لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة " [1] فسارعوا إليها وعندما أدركهم العصر في الطريق وخشوا الغروب فهم بعضهم من هذا الأمر مقصده ، وهو المسارعة ، وبعضهم حمله على حرفيته ، فصلى الأولون في الطريق ، وأخر الآخرون الصلاة إلى أن وصلوا إلى بني قريظة وقد غربت الشمس ، ولما حكوا للنبي– صلى الله عليه وسلم – اجتهاد الفريقين لم يعنف أحدا ، ففهم الفقهاء من ذلك أن النص إذا كان يحتمل أكثر من معنى أمكن الاجتهاد فيه و ساغ الخلاف .

ثم تفرق الصحابة في الأمصار ، وحمل كل منهم ما معه من السنة والفقه ، وأخذ عنهم الناس في تلك الأقطار ، وتكونت المذاهب الفقهية ، وحدثت الفرق العقدية ، وكثرت المناظرات وفق آداب معينة . واستساغ الناس هذا الخلاف خاصة فيما يتعلق بالفروع ، فعندما اقترح الخليفة على الإمام مالك أن يؤلف كتابا يجتنب فيه شدائد ابن عمر ورخص ابن عباس وشواذ ابن مسعود ، فإذا فعل ذلك فإن الخليفة سيجبر الناس على الأخذ به ، رفض مالك ذلك للأسباب التي ذكرناها آنفا من تفرق الصحابة في الأمصار ، وانتشار العلم والرواية . ولا بأس أن نلقي نظرة عجلى على اختلاف الصحابة فمن بعدهم بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم .

[1] . رواه البخاري ، ورواه مسلم : لا يصلين أحد الظهر إلا في بني قريظة .